

صور النظرية السياقية في الدراسات البلاغية المناسبة في "سورة طه" أنموذجا.

أ / ابتسام زريق
جامعة محمد خيضر - بسكرة -

أولاً: النظرية السياقية التراثية من الدراسات اللغوية إلى الدراسات اللغوية
النصية:

I. تعريف السياق:

اختلف الباحثون في تعريفهم للسياق⁽¹⁾، فلم يتفقوا على تعريف محدد له ومن التعريفات السائدة للسياق تعريف أورده كل من ديكرو (Ducrot) وتودوروف (Todorov) في القاموس الموسوعي لعلم اللغة، ويتمثل في قولها: "ومقام الخطاب هو مجموع الملابس التي في إطارها يتحدد فعل التلفظ سواء كان مكتوباً أو شفويًا."⁽²⁾ يفهم من خلال هذا التعريف أن للمجتمع وظيفته في تحقيق العملية التواصلية التي تعدّ فيها اللغة الواسطة الفعالة يتبادل من خلالها الأفراد أفعال الكلام الناتجة عن سياق ما. فالسياق هو السبب في إنتاج الأفعال الكلامية وهو الضامن لتلقيها قبولاً أو رفضاً، بالإضافة إلى ذلك فـ"هو مجموع الشروط الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني."⁽³⁾ فلا يخفى أن هذه الشروط مرتبطة بالمتخاطبين وتمثل في الزمان والمكان من جهة والقانون اللغوي الذي يحكم الجماعة اللغوية من جهة أخرى.

II. النظرية السياقية في الدراسات البلاغية:

1. نظرية النظم:

أ. في مفهوم النظم:

يرجع جلّ الدارسين مفهوم السياق اللغوي إلى نظرية النظم التي يعرفها (عبد القاهر الجرجاني) بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها."⁽⁴⁾ وبناءً عليه فإن: ركيزة ضم الألفاظ بعضها إلى بعض هو التزام علم النحو وأحكامه ومعرفة قوانينه التي تضمن صحة النظم: "فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية أو فضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله أو باب من أبوابه."⁽⁵⁾ ولما كان لكل نظرية آلياتها؛ فآليات النظم هي اعتماد معاني النحو: "الدالة على المعقولة والتي تتفق مع المنطق اللغوي للجماعة والتي لا يستفاد معنى دون خضوعها له."⁽⁶⁾ واعتماد معاني النحو في نظرية النظم، لا يعني أن تتعالق الألفاظ وتتنظم في إطار أحكام النحو وأبوابه فحسب، بل لا بد من ترتيبها وفق المعاني في الذهن أيضاً ذلك: "أنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها ترتب بحكم أنها خدم للمعاني، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق."⁽⁷⁾ وهذا ما يسهم في بناء الكلام ونظمه نظماً يحقق التماسك من حيث اللفظ والمعنى معاً، ف: "اعلم أنّ من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه الحسن كالأجزاء من الصيغ، تتلاحم وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين. فأنت بذلك لا تكبر شأن صاحبها ولا تقضي له بالحدق والأستاذية وسعة الذرع وشدة المنة حتى تستوفي القطعة وتأتي على عدة أبيات."⁽⁸⁾

وما سبق فإنّ: مفهوم النظم عند (الجرجاني) لا يبتعد كثيراً عما ورد في المعاجم اللغوية من شروح وافية له وبالإضافة إلى ذلك قام أيضاً برصد العلاقة بين السياق اللغوي والسياق غير اللغوي من خلال الحديث عن وجوه الخبر فقال: "... وذلك أن لا نعلم شيئاً

يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه؛ فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق والمنطلق هو زيد (...). فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويحيى به حيث ينبغي له.⁽⁹⁾ والهدف من ذلك هو أن يختار الناظم من تلك الفروق ما يناسب مقصده من نظم للألفاظ وتأدية للمعنى من جهة، وما يتماشى مع المقام الذي فيه رعاية للسامع من جهة أخرى؛ فيقدم ما كان مقامه التأخير ويؤخر ما كان مقامه التقديم، وبهذا يكون قد ربط بين بعدين رئيسين تناولتهما اللسانيات الحديثة بالدراسة وهما الدلالة والتداول؛ الدلالة المتحققة بواسطة التأليف بين الألفاظ المرتبطة بمقتضى الحال أو المقام.

وكما تطرق القدماء إلى السياق اللغوي، تنبهوا أيضا إلى السياق غير اللغوي الذي تباينت مصطلحات اللغويين حوله؛ فنجد مصطلح المقام، مقتضى الحال وبساط الحال وأسباب النزول عند المفسرين؛ فبالنسبة للمقام، فإننا نلاحظ أن العديد من البلاغيين قد اهتموا به وذكروا أنه لكل مقام مقال؛ فمقام التهنئة مغاير لمقام التعزية ومقام المدح مغاير لمقام الذم، وكذلك الناس فهم طبقات لذا وجب مخاطبة كل طبقة حسب مستواها، هذا وقد ثبت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يخاطب الناس قدر عقولهم؛ إذ إن مخاطبة العوام من الناس تختلف عن مخاطبة الخواص منهم وهكذا الأمر بالنسبة لمقتضى الحال الذي يظهر من خلال تعريف البلاغة؛ فهي: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته."⁽¹⁰⁾ ومرد ذلك أن البلاغة تقتضي مطابقة كل ما يصدر عن المتكلم من خطابات خاضعة للعرف اللغوي للمقام في العالم الخارجي.

ويظهر اهتمام (الجاحظ) بمقتضى الحال جليا في كتابه: "البيان والتبيين" فيقول في غير موضع ناظرا أقوال بشر بن المعتمر؛ فأما الموضع الأول فيظهر في قوله: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما."⁽¹¹⁾ ذلك أن إيفهام الناس يفرض على المتكلم معرفة مستوياتهم الذهنية حتى لا يثقل كاهلهم بألفاظ لا يدركون معناها ويتم التواصل معهم

بما يناسبهم شأنهم في ذلك شأن المعاني؛ حيث إن لكل معنى لفظ يعبر عنه ويترجم مرجعه في العالم الخارجي. فالوازنة بين المستمعين تسهل على المتكلم انتقاء المفردات التي تخدم المقام.

أما الموضوع الآخر؛ فيقول فيه: "وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال."⁽¹²⁾ فالاهتمام بالمقام يحقق الغاية المنشودة من اللغة والمثثلة في التواصل وغيرها من المواضع.

وبالنسبة لبساط الحال الدال على السياق غير اللغوي؛ فقد تفتن إليه عالم الاجتماع (ابن خلدون)، حيث قال في مقدمته: "الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها، ويبقى ما تقتضيه الأحوال- ويسمى بساط الحال - محتاجاً إلى ما يدل عليه، وكل معنى لا بد وأن تكتفه أحوال تخصه، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود؛ لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع."⁽¹³⁾ وها هنا تجدر الإشارة إلى أن (ابن خلدون) قد تنبّه إلى كون الألفاظ دالة على المعاني بالوضع؛ وهذه المعاني لا تتحدّد بمعزل عن المقام الذي ينبغي مراعاته أثناء ممارسة عملية التواصل.

وبالنسبة للمفسرين فقد اهتموا بالسياق من خلال التنقيب في أسباب النزول والحديث عن المناسبة بين الآيات من جهة، وبين السور من جهة أخرى.

III. النظرية السياقية في الدراسات البلاغية النصية:

إنّ الحديث عن علم المناسبة في سور القرآن الكريم من مناسبة داخلية وأخرى خارجية فيه إحالة، إلى أن نظرية النظم قد اكتفت بالبحث في التعلق بين آيات الذكر الحكيم مسالكة في ذلك مسلكين هما: طريق نحوي يرمي من خلا له (الجرجاني) إلى الكشف عن التماسك بين الآيات والتأليف بينها في مستوى عالٍ من مستويات النظم، وآخر بلاغي يرصد في كل ما يرد في النص القرآني من تقديم وتأخير، حذف وإضمار وغير ذلك، والهدف من الربط بين جودة السبك وجودة التصوير الفني هو الإشارة إلى أنّ إعجاز القرآن الكريم ليس بلفظه فقط أو بمعناه فحسب؛ وإنما هو معجز بالتأليف بينها بينما تهدف المناسبة باعتبارها علماً يبحث أيضاً في أوجه الإعجاز القرآني إلى تتبع كل المظاهر الواردة والمتداخلة في

سور القرآن الكريم من وعد ووعيد، وقصص الأنبياء مع أقوامهم، ومواعظ وأمثال وغيرها؛ ذلك أنت ناسق الأغراض لا يرد في سورة واحدة؛ بل إنه يرد بكثرة الأغراض وتواترها بين سور القرآن الكريم ككل مما يجعل القرآن الكريم في تناسقه سورة واحدة.

1. علم المناسبة:

يعرفها (السيوطي) بقوله: "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء."⁽¹⁴⁾

ويشير (السيوطي) إلى أن هذه الظاهرة مرتبطة بالقرآن الكريم، فيذكر تعريف (ابن العربي) في كتابه: "سراج المريدين"، القائل: "إن المناسبة هي ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني."⁽¹⁵⁾

وقد ذهب (السيوطي) في كتابه: "معترك الأقران" إلى الحديث عن العلاقات التي تربط بين الآي كالسببية والمسبب، العلة والمعلول، والنظيرين، والضدين، وغيرها من العلاقات مما يسهم في التناسب بين آي السورة الواحدة ومناسبة فواتح السور لخواتمها من ناحية، ومناسبة السورة لخواتم ما قبلها وفواتح ما بعدها من ناحية أخرى، فقال: "ومرجعها [أي المناسبة] في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما؛ عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهني، كالسبب والمسبب والعلة والمعلول النظيرين والضدين ونحوه."⁽¹⁶⁾ وهذا يجعل من تناسب آي القرآن وسوره في تواجدها كالتلازمة المتناسقة، ولا يكفي عرض العلاقات الحسية والمعنوية القائمة بين آيات الذكر الحكيم والتأكيد على أهميتها؛ بل يسوق أنواع الربط بينها من خلال رصده للروابط الشكلية؛ فيقول: "ذكر الآية بعد الأخرى، إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلام ببعضه وبعضه وعدم تمامه في الأولى فواضح وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البديل."⁽¹⁷⁾ ثم يبيّن مظاهر الربط المعنوي بين الآيات؛ أين لا تظهر الروابط الشكلية بجلاء ووضوح ما يؤدي إلى القول بأن الآيات منفصل بعضها عن بعض تمام الانفصال مما يجعلها

متباينة دلالية؛ فلا يفهم التماسك بينها إلا من خلال البحث في بنيتها العميقة والرجوع إلى السياق وملاساته بالإضافة إلى الخلفية المعرفية، فيقول: "وإما ألا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به، وإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أو لا." (18) وهذا يتقاطع ما توصلت إليه اللسانيات النصية في نظرياتها المختلفة التي عاجلت النص وقضاياه من خلال البحث في ترابطه الشكلي وترابطه المعنوي وعلاقته بالعالم الخارجي.

ويتضح مما سبق أن المناسبة قسمان: المناسبة الداخلية والمناسبة الخارجية، حيث ترتبط الأولى بالتناسب بين الآيات، مناسبة اسم السورة لمضمونها ومناسبة أول السورة لآخرها، في حين ترتبط الأخرى بمناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، ومناسبة السورة لغرضها. وهذا ما سنعرضه من خلال البحث في التناسب الداخلي والتناسب الخارجي لسورة "طه".

ثانياً: المناسبة في سورة "طه":

I. التناسب الداخلي في سورة "طه": يظهر التناسب الداخلي في سورة "طه" من خلال دراسة:

1. المناسبة بين الآيات:

يحتكم التناسب بين الآيات إلى الروابط المتوفرة على مستوى النص القرآني سواءً أظهرت هذه الروابط أو أضمرت وفي كلتا الحالتين يبرز التناسق والبناء المحكم له، وإن تباينت موضوعاته وأغراضه، ومن أمثلته في سورة طه:

✓ قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي 25 وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي 26 وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي 27 يَفْقَهُوا قَوْلِي 28 وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي 29 هَارُونَ أَخِي 30 وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي 31 وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي 32 كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا 33 وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا 34 إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا 35" [سورة طه 29/25] سعى سيدنا موسى "عليه السلام" من خلال دعوته إلى رد فرعون عن ضلاله

المبين؛ ذلك أنه طغى في الأرض واستبد ونسي أن الله استوى على العرش، ولتحقيق مآربه دعا الله تعالى أن يشرح صدره لتبليغ الرسالة لما في الأمر من صعوبة في الإقبال عليه فكان دعاؤه مبهماً لذلك أزيل بدعاء تيسير الأمر الممثل في رد فرعون عن عتوه، ولما كان يعاني من حبسة في كلامه من الحجرة التي أحرقته دعا الله أن يزيل عنه هذه الحبسة ويشركه أخاه هارون في إتمام دعوته. وهاهنا نلاحظ أن العلاقة الرابطة الآيات السابقة هي علاقة السببية؛ إذ إن سيدنا موسى "عليه السلام" قد ذكر علة دعائه الله تعالى البارزة في دعوة فرعون إلى عبادة الله تعالى، ثم بين العلة الحقيقية من دعائه وهي كثرة الذكر والتسبيح لله تعالى.

✓ قوله تعالى: "فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ 51 قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ 52 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهَادًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ 53 كُلُّوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ 54" [سورة طه 54/51] حاول فرعون أن يستنبر عن أحوال السابقين وبيان مآلهم، فمهد له سيدنا موسى "عليه السلام" بالإخبار عن أن كل ما ظهر أو أضمر فهو في لوح محفوظ ثم بين قدرة الله التي وسعت كل شيء فلا تفوته صغيرة ولا كبيرة من أمر مخلوقاته، وبعدها أكد ذلك بدليل عقلي بين فيه أن الوحدانية لله وحده جل جلاله الذي: "سهل طرقاً تسلكونها في أراضي سهلة وسطها بين الجبال والأودية والرمال، وهياً لكم فيها من المنافع من المياه والمراعي ما يسهل ذلك، وجعل فيها ما لا يمكن استطراره أصلاً، من أن نسبة الكل إلى الطبيعة واحدة، فلولا أن الفاعل واحد مختار لم يكن هذا التفاوت وعلى هذا النظام البديع."⁽¹⁹⁾ وبعظمته جل جلاله زين الأرض بالنباتات المختلفة ألوانها من زرع وثمار وغيرها، يقتات منها البشر وسائر الأنعام وكلها دلائل وبراهين على أنه لا إله إلا هو رب السماوات والأرض وما بينهما، وهاهنا يبرز حسن التخلص في الانتقال من آية لأخرى.

2. مناسبة اسم السورة للمضمون:

إذا ألقينا نظرة متفحصة على سورة "طه"، وجدنا أن اسم السورة يتشكل من حرفين هما: الطاء والهاء؛ فالطاء بمخرجها الذي هو من رأس اللسان وأصول الثنايا العليين فيه إشارة إلى قوة أمر وانتشاره، وعلوه وكثرة أتباعه، لأن هذا المخرج أكثر المخارج حروفاً،

وأشدها حركة وأوسعها انتشاراً، وبما فيها من صفات الجهر والإطباق والاستعلاء والتقلقة إلى انقلاب ما هو فيه من الإسرار جهرًا، وما هو فيه من الرقة فخامة، لأنها من حروف التفخيم، وأنه يستعلي أمره وينتشر ذكره، حتى يطبق جميع الوجود ويقلقل سائر الأمم.⁽²⁰⁾ والهاء بمخرجها من أقصى الحلق فيه إشارة: "على حد بعده من طرف اللسان مع طول كبير وتماد كثير، وبما فيها من صفات الهمس والرخاوة والانفتاح والاستفال والخفاء مع مخافته وضعف كبير، وهدوء وخفاء عظيم، ومقاساة شدائد كبار، مع نوع فخامة واشتهار، وهو وإن كان اشتهاراً يسيراً يغلب هذا الضعف كله وإن كان قوياً شديداً".⁽²¹⁾ واجتماع هذين الصوتين في سورة "طه" المقصود منه: "الإعلام بإهمال المدعوين والحلم عنهم والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، زيادة في الشرف داعيمهم (صلى الله عليه وسلم) وعلى هذا المقصد الشريف دلّ اسمها بطريق الرمز والإشارة، لتبيين أهل الفطنة والبصارة، وذلك بما في أولها من الحروف المقطعة، وذلك أنه لما كان ختام سورة مريم حاملاً على الخوف من أن تهلك أمته (صلى الله عليه وسلم) قبل ظهور أمره الذي أمر الله به واشتهار دعوته، لقلّة من آمن به منهم".⁽²²⁾ ولتثبت وجه المناسبة القائم بين اسم السورة ومضمونها يجب أن نشير إلى سبب نزولها الذي يمكن إجماله في:⁽²³⁾

✓ رواية مقاتل؛ فقد قال أبو جهم والنظر بن الحارث للنبي (صلى الله عليه وسلم): "إنك لتشقى بترك ديننا، وذلك لما رأياه من طول عبادته وشدة اجتهاده فأنزل الله تعالى سورة طه".

✓ رواية أبي بكر الحارثي؛ فقد قال أخبرنا أبو الشيخ الحافظ، قال أخبرنا أبو يحيى، قال: حدثنا العسكري، قال: حدثنا أبو مالك عن جوير عن الضحاك، قال: "لما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، قام هو وأصحابه فصلوا؛ فقال كفار قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد، إلا ليشقى به، فأنزل الله سورة طه؛ يقول: يا رجل "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى". وعليه فإن: طه المقصود بها يا رجل، فيها من الإجلال والتقدير للرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيم لأمره ما يبرزه مضمون السورة؛ لذلك فاسم السورة مناسب لمضمونها ومن الدلائل التي تثبت ذلك:

✓ قوله تعالى: " طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَحْشَى (3) [سورة طه 3/1]؛ حيث إن هذه الآيات فيها إحالة إلى ، أن القرآن الكريم قد نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وكله رحمة ونور لا شقاء كما ادعى الكفار، فقد أنزله الله تعالى على الرسول الكريم ليذكر الذاكرون وينتفعوا بما ورد فيه من أحكام ومعاملات وأوامر ونواهي، وهذا ما تدل عليه السورة الكريمة؛ إذ إن الهدف منها هو: "تشريف هذا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) بإعلامه بالرفق بأمته، والإقبال بقلوبهم حتى يملؤوا الأرض كثرة، كما أنزل عليهم السكينة وهم في غاية الضعف والقلّة." (24).

✓ قوله تعالى: "وَأَنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15)." [سورة طه 15/7] ففي هذه الآيات البينات تذكير بلطائف القرآن الكريم؛ فقوله تعالى: "وَأَنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)" [سورة طه الآية 7]. أي كل ما يحدث به الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه علنا أو خفية، لذلك فإن الجهر بالقول؛ أي "بهذا القرآن للبشارة والندارة أو لغير ذلك أو بغيره ، فإنه عالم به وغير محتاج إلى الجهر، فلا تتكلف ذلك في غير ما أمرت بالجهر به لغرض غير الإسراع "فإنه يعلم السر" وهو ما لناجي به الاثنان مخافته وأخفى من ذلك ، وهو ما في الضائر مما تخيلته الأفكار ولم يبرز إلى الخارج وغيره من الغيب الذي لم يعلمه غيره تعالى بوجه من الوجوه." (25) وبهذا يرفع الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم الشقاء الذي كان قد ادعاه الكفار، ولأن الله عالم الغيب والشهادة، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فقد أشار إلى ذلك من خلال اسمه الأعظم الذي شمل صفاته العلا، فكان الكمال له جل جلاله، في قوله: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)" [سورة طه الآية 8]. وبعد ذلك استعرض قصة سيدنا موسى عليه السلام في قوله: " وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى

نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10)
 فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)
 وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي
 (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15). [سورة طه الآيات 9
 /15] والهدف من استعراض قصة سيدنا موسى عليه السلام هو التيسير على الرسول
 صلى الله عليه وسلم وما نلاحظه أنه جل جلاله قد استهأها باستفهام تقديره: "هل علمت بما
 ذكرناك به في هذه الآيات أنا نريد ما هو علينا يسير بما لنا من القدرة التامة والعلم الشامل
 من إسعادك في الدارين وتكثير أجرك، وتفخيم أمرك بتكثير أتباعك، وعطف عليه القصة
 شاهداً محسوساً على ما له من التصاف بما انتفى عن غيره من الأسماء الحسنى ، ولا سيما ما
 ذكر هنا من الاتصاف بتمام القدرة والتفرد بالعظمة." (26). إن سرد سياق قصة سيدنا موسى
 عليه السلام وصبره على تبليغ الرسالة وتحمله ما لا طاقة له من قومه فيه إحالة إلى أن المقصد
 من السورة ككل هو رفع الشقاء على الرسول صلى الله عليه وسلم وترغيبه في الرسالة، كما
 رغب سيدنا موسى عليه السلام من قبل بذكر قصص الأنبياء قبله.

3. مناسبة أول السورة لآخرها:

إن أوجه المناسبة القائمة بين أوائل سورة (طه) و خواتمها عديدة يمكن حصرها في:

✓ ابتدأت بذكر الرسول صلى الله عليه وسلم واشتهار دعوته وكثرة أتباعه مما
 عارضه المشركون لقوله تعالى: " طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ
 يَخْشَى (3)" [سورة طه الآية 1 / 3] ، وقد ذهب جل علماء التفسير إلى أن فواتح السور
 من أحسن البلاغة ولا سيما البيانيين، وهو: "أن يتأق في أول الكلام؛ لأنه أول ما يقرع
 السمع، فإن كان محرراً قبل السامع قبل الكلام ووعاه وإلا أعرض عنه، وإن كان في نهاية
 الحسن؛ فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأرقه وأجزله وأسلسه وأحسنه نظماً
 وسبكاً." (27) والأمر كذلك بالنسبة لخواتمها فقد تحدثت أيضاً عن كثرة أتباعه صلى الله عليه
 وسلم وعلق شأنه، ويظهر ذلك في قوله تعالى: "فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ

طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى 130.
[سورة طه الآية 130]

✓ ومن لطائف سورة (طه) أيضاً أنها ابتدأت بالحديث عن وحدانية الله تعالى وكال صفاته في قوله تعالى: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى 5 لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى 6 وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى 7." [سورة طه الآيات 5 / 7] وخواتم سورة طه فيها إحالة إلى وحدانية الله تعالى وتفصيل صفاته العلاء، فقد أحاط بالخلائق علماء، بالإضافة إلى ذلك فهو الكامل القوي الذي يستسلم لقدرته كل المخلوقات ويظهر ذلك في قوله تعالى: "يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا 110 وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا 111." [سورة طه الآيات: 110 / 111]

✓ ذكر قصص الأنبياء وأخبارهم حيث ذكر في بداية السورة قصة سيدنا موسى عليه السلام في قوله تعالى: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15)." [سورة طه الآيات 9 / 15] وفي خاتمتها ذكر قصة سيدنا آدم عليه السلام في قوله تعالى: "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا 115 وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى 116 فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى 117 إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى 118 وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى 119 فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى 120 فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى 121 ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى 123." [سورة طه الآيات 115 / 123]

II. التناسب الخارجي في سورة طه:

1. مناسبة السورة لأواخر سورة مريم :

إنَّ أهم ما تضمّنته أواخر سورة (مريم) هو الحديث عن القرآن الذي نزل بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم، ليشتر به عباد الله الصالحين الذين: "يجعلون بينهم وبين ما يسخط الله وقاية، فلا يبطون حقاً ولا يحقون باطلاً، ومتى حصلت لهم هفوة بادروا الرجوع عنها بما لهم عندنا من العز الذي هو ثمرة العز المدلول عليه بما لهم منه في الدنيا." (28) وإنذار المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم المتبعدين عن دين الحق، ويظهر في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا 96 فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بَلْسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا 97 وَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ نُحِثُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا 98." [سورة مريم الآيات 96 / 98]. وهذا فيه تعظيم وإجلال للعباد الصالحين، "وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم السورة قبلها، ثم هو يخفي تارة ويظهر أخرى." (29) ومن ذلك افتتاح (سورة طه) فهو في غاية المناسبة لما تضمّنته أواخر سورة مريم؛ إذ إنَّ الله تعالى بيّن فيها أنّ القرآن الكريم نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعباد لا لشقاء الرسول والعباد، فهو دليل الجنة للمتقين يحوي الوعد والوعيد؛ فبعد أن بين جلّ جلاله في أواخر (سورة مريم) إقبال البعض وتأبيدهم للرسول الكريم وإعراض البعض الآخر عنه وادّعاء المشقة في نزول القرآن أكد أنّ الكتاب هو تذكرة لكل مذكّر؛ فالمقبلون عليه هم أهل السعادة والمعرضون عنه هم أهل الشقاء، ويظهر ذلك في قوله تعالى "طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَى (3) [سورة طه الآيات 1 / 3]

2. مناسبة السورة لأوائل سورة الأنبياء:

لما اشتملت آخر "سورة طه" على الوعد والوعيد للكفار وبيان مآلهم بعد أن أعرضوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وخالفوه باستمرارهم على شركهم وطغيانهم، والمتمثل في قوله تعالى: "وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْلَمْ تأتِئِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى 133 لَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أُرْسِلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنذَلَ

وَجَزَىٰ 134 قُلْ كُلُّ مُرِيضٍ فَتَرَبُّصًا فَسَتَعْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ السِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَىٰ 135." [سورة طه الآيات 133/ 135] ابتدأت سورة الأنبياء بالحديث عن يوم الحساب الذي غفل عنه عامة الناس من قريش لا المشركون فحسب، ويظهر ذلك في قوله تعالى: "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ 1 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ 3 لَأَهِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ 3 قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ 4". [سورة الأنبياء الآيات 4/1] وها هنا يبتدئ الله تعالى عباده إلى أمر محم قد غفلوا عنه وهو اقتراب الساعة، فكلما أنزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم كان الإعراض من قبل شباب قريش؛ لذلك فإنه: "لما ختمت طه بإنذارهم بأنهم سيعلمون الشقي والسعيد، وكان هذا العلم تارة يكون في الدنيا بكشف الحجاب بالإيمان وتارة بمعاينة ظهور الدين وتارة بإحلال العذاب بإزهاق الروح بقتل أو غيره، وتارة ببعثها يوم الدين، افتتحت هذه بأجلى ذلك وهو اليوم الذي يتم فيه كشف الغطاء فينتقل فيه الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين وحق اليقين وهو يوم الحساب."⁽³⁰⁾

وختاماً يمكن القول: إنّ الحديث عن علم المناسبة بنوعيه من مناسبة داخلية ومناسبة خارجية يمثل صورة من صور النظرية السياقية، بالإضافة إلى كونه مبحثاً من مباحث الإعجاز؛ فإذا اعتبرنا علم لغة النص علماً يبحث في تماسك النص وانسجامه، فإنّ علم المناسبة تظهر الكيفية التي تتعاقب بها آي الذكر الحكيم وتبرز بصورة متفردة التماسك الحاصل بين آي السورة الكريمة من جهة، و بين السورة والعالم الخارجي من جهة أخرى.

الهوامش والمراجع

- ¹ - السياق لغة: من مادة (س و ق) ومنه ساق النعم فانسقت... ومن المجاز قولهم : هو يسوق الحديث أحسن سياق... وهذا الحديث مسافه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده. (الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 ، 1419 هـ/1998 م، الجزء الأول، ص 484 .)
- ² - علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص32.(نقلا عن ديكرو وتودوروف).
- ³ - المرجع نفسه، ص34.
- ⁴ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3 ، 2001 ، ص70
- ⁵ - المصدر نفسه، ص70-71.
- ⁶ - المصدر نفسه، ص71 .
- ⁷ - المصدر نفسه، ص53-54.
- ⁸ - المصدر نفسه، ص75.
- ⁹ - المصدر نفسه ، ص70.
- ¹⁰ - التزويني: الإيضاح في علم البلاغة، ص 6 <http://www.almostafa.com>
- ¹¹ - الجاحظ: البيان والتبيين، ص54 <http://www.almostafa.com>
- ¹² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹³ - ابن خلدون: المقدمة، ص495 <http://www.almostafa.com>
- ¹⁴ - السيوطي: الإنتقان في علوم القرآن، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، تعليق مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، ناشرون، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، ط1، 2008 ، ص 631 .
- ¹⁵ - المصدر نفسه، ص 630 .
- ¹⁶ - السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408 هـ/ 1988 م ، المجلد الأول، ص44 - 45
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص 45 .
- ¹⁸ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁹ - البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، 1995 م /1415 هـ، الجزء 5 ، ص 23.
- ²⁰ - ينظر المصدر نفسه، ص 03 .
- ²¹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها

- ²² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ²³ - الواحدي: أسباب نزول القرآن، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411 هـ، 1991 م، ص.312.
- ²⁴ - البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الجزء 05، ص 08.
- ²⁵ - المصدر نفسه، الجزء 5، ص 10.
- ²⁶ - المصدر نفسه، ص 11.
- ²⁷ - السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ص 58.
- ²⁸ - البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الجزء 4، ص 560.
- ²⁹ - المصدر السابق، ص 52.
- ³⁰ - البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الجزء 5، ص 63.

